

من الأدب التحليلي

أنا ...

للاستاذ علي الطنطاوي

- ١ -

... قال لي أهلي : لقد جئت إلى هذه الدنيا عارياً بلا أسنان ، لا تحسن النطق ، ولا تعرف شيئاً ... فضحكت ولم أصدق ، فأعادوا ذلك علي ، وألقوه كأنه قضية مسلمة وأمر واضح لا يحتمل الشك ، وعجبوا مني حين أكذبه وأرده ... ولكنني بقيت على رأي الأول ، لم أستطع مطلقاً أن أصدق ما يقولون ، لأنني أعرف بنفسى منهم ، ولأنني أذكر ماضى كله : أذكر أنني فتحت عيني ذات يوم فجأة ونظرت ... فوجدت نفسى ، ورأيت أن لي أسناناً وعلى ثياباً ، وبى قدرة على المشي والنطق ، ورأيتني شخصاً مستقلاً عن أبى وأمى وسائر أهلى ، أحب أشياء لا يحبها أحد منهم ، وأكره أشياء لا يكرهونها ، ولا يميزنى منهم إلا أنى كالطبعة المختصرة من الكتاب ، فيها كل الأبواب والفصول بيد أنها موجزة و ... بالقطع الصغير ، ...

أفيعقل أن أكون موجوداً قبل ذلك اليوم ، وأنا لا أعرف نفسى ؟

مستحيل !

واستقر في ذهني من يومئذ ، أنا ولدت وأنا في الرابعة من عمري !

- ٢ -

وصرت أرى هذا الطفل دائماً ، أبصر صورته في المرآة وأسمع صوته بأذني ، وأصغى إلى حديث أمى عنه بشغف وسرور ، فكنت أشعر بميل غريب إليه ، حتى أنى لاعترف إلا أن بانه كان أحب إلى من أمى ، التي لم أكن أعدل بها أحداً

ولا أقبل كنوز الأرض بدلا من امتصاص ثديها والنوم على صدرها ...

ذلك الطفل الباسم ، ذو العينين السوداوين ، والشعر ... يا للأسف ! انى لا أستطيع أن أتخيل شعره ، لقد محيت صورته من ذا كرتى ، لقد اختفى من الدنيا منذ ربع قرن ، لقد ذهب إلى حيث لا أدري ؟ فهل كنت أنا ذلك الطفل ؟ هل تجمي يده الصغيرة الغضة في يدي الخشنة التي أخط بها هذا المقال ؟ فأين ذهب إذن ؟ ومن أين جئت أنا ؟ ... انى لست ذلك الطفل ولست غيره ... فكيف يعقل هذا ؟ هذا يحيرني دائماً ، ولا أعرف له حلاً ، بل ان مجرد التفكير فيه يدفعني إلى الجنون ...

- ٣ -

ونظرت يوماً من الأيام - فاذا في مكان ذلك الطفل الالهى اللاعب - العابت بكل شئ ، الذي يحطم كل ما يصل إليه ، ويقبض على الجرة المشتعلة بيده كما يقبض على البرقالة الحمراء ، ويبعث بلحية القاضى إذا هو بلغها ، كما يبعث بشعر الهرة ... إذ أنى مكانه تليذ يقرأ مكرهاً ، ويكتب مضطراً ويحملهم المدرسة التي يذهب إليها كل يوم كالذى يساق إلى الموت ، لا يعرف لوجوده فيها معنى ، ولا يدري فيم يدع عطف أمه ، والانس باخوته ، ولم يترك بيته وما فيه من الدفء في الشتاء ، والظل في الصيف ، لينذهب إلى هذه الدار التي يحشد فيها الأطفال الأبرياء المساكين ، لتحشى أدمغتهم بمسائل لا يدركون معناها ، وشروح لا يعرفون مغزاها ، وتقال من أبنائهم وظهورهم عصا المعلم الغليظة ، وتقذى عيونهم برؤية طلعت البغيضة ، لا المعلم يبسم لهم ، ويدعوهم إلى حبه ، ولا أهلهم يستمعون شكواهم وينصفونهم ... لقد كان في هذه المدرسة كالمحكوم عليه بالسجن ظلاً ...

يا لهذا التليذ البائس الذي لم يكذب يفتح عينيه على الدنيا حتى أبصر الشقاء والألم . لقد مات كنداً ، ومضى مسرعاً في طريق الفناء ... مسكين ... إنه لم يكن إلا أنا ، أنا الذي ولدت وماتت مرة ، حتى صرت الآن ... (أنا)

— ٤ —

وكان يوم آخر ، فاذا (الفلم) ينكشف هذه المرة عن منظر جديد : اختفى التليذ الجميل ، ذو السراويل القصيرة ، والقميص الأحمر ، والحقيبة الزرقاء الصغيرة ، وذهب بجسمه ونفسه ومبوله وأفكاره ، وظهر الشاب الخليق الوجه ، ذو (الربطة) الطويلة ، والحقيبة السوداء الواسعة ... ظهر في الثانوية طالباً متحمساً ، كأنما ركبت أعصابه من الدناميت ، وصنع فمه على مثال فوهات الرشاشات ، فلا يكاريح في المدرسة حادث ، أو تقوم في البلد ضجة ، إلا انفجر الديناميت وانطلق الرشاش ، وقام في الطلاب خطيباً ثائراً مثيراً ، فخطموا الباب وخرجوا ... كان ينتقم بهيأته وثورته لذلك التليذ الهادئ الحبي المظلوم ... ولكن الامتحان لم يلبث أن يكسر له عن أنيابه وجاء ينتقم منه ...

هذه هي البكالوريا . قتها لها . إن مستقبلك معلق عليها ... ولم يكن قد فكر في المستقبل . أو حسب له حساباً فلما سمع به وقف وتردد وكبح من جماح نفسه ... يجب أن يضمن المستقبل . ليصل إلى آماله . آماله الكبار التي كانت تملأ نفسه ولا يشك في بلوغها ... وكان قد بدأ ينشر في جرائد البلد فهو يجب أن يكون كاتباً كبيراً منتجاً يخدم بقلبه وطنه . ويدافع به عن الحق والفضيلة . ويقا تل به خصومها وأعداءها ويساهم في تحرير وطنه . ويكون له في (الإصلاح الشعبي) أثر يذكر . فليسع إذن لنيل الشهادة ، فانها تبلغه كل أمل . وتوصله إلى أبعد غاية . إن الدنيا كلها ترتقب نجاحه في (البكالوريا) . فاذا نجح فتحت له الأرض كنوزها . وحمله الناس على أعناقهم إلى سدة المجد . وقاموا بين يديه قيام الخدم بين أيدي الملوك ...

تلك كانت أحلام الصبا ... فيا رحمة الله على عهد الصبا !

— ٥ —

حرم الشاب على نفسه كل متعة من متع الدنيا ، فلا نزوة ولا راحة ، ولا حظ له في النوم العميق ، ولا الطعام الهنيء . ولا شغل إلا شغل المدرسة ، حبس نفسه بين كتبه ودفاتره بقرأ آناه الليل وأطراف النهار ، ينتقل من هذيان الأدباء

إلى طلسمات الرياضيين والعلماء ، وحساب الجيب والمماس ، إلى شعوذات الطبيعيين وأصحاب الكيمياء ، ودرس الملح والحامض والفضياء والكهرباء ، إلى خرافات الفلكيين وجغرافية السماء ، يدس هذا الهراء كله في دماغه ليصبه يوم الامتحان في ورقة الفحص ، ثم يلقيه في مكانه ، ويخرج من المدرسة فارغ الرأس كما دخلها أول مرة ...

كان يخشى أن يثار منه المدرسون الذين جرعههم الصاب وسقام الخنظل باعتراضاته ومناقشاته وثوراته فيسقطوه في الامتحان ، فجد كل الجد ، ولم يدع في كتب المدرسة حاشية إلا حشاها في رأسه ، ولا تعليقة إلا علقها في ذاكرته ، ثم دخل الامتحان بعقل من سطوح وأجسام ، وخطوط وأرقام ، وخرافات وأوهام ، فنجح أعظم نجاح ...

وهل ينجح في الامتحان إلا من حفظ ولم يفهم ؟ وهل تدل هذه الامتحانات إلا على قوة الذاكرة ، وشدة الحفظ وإتقان المنهج المقرر ؟

نجح ، فوثب فرحاً ، وتهايخوض معركة الحياة ، فقالوا له : مهلاً قال : ماذا ؟ قالوا : لابد من شهادة عالية . إن المستقبل لا يضمن إلا بشهادة عالية !

قال : وبحكم وهل يبنى المستقبل على (الورق) ؟ وانطلق يلعن هذا المستقبل ، الذي حرمه عبث الطفولة ومتعة الشباب ، ونقص عليه حياته ، ولم يتركه يستريح إلى حاضره يوماً واحداً ، كان أبدأ يدفعه إلى الامام ، فيعدو كالفرس المحموم ، فيتعب من العدو ، ولا يصل إلى منزل !

— ٦ —

راح الشاب يدرس الحقوق لينال الشهادة ، ويضمن المستقبل ، ويشغل بالأدب ، ليستجيب للرغبة ، ويحظى بالمنعة ويعمل في الجريدة ، ليضمن العيش ، ويعول الأسرة ... واستمر على ذلك حتى نال (الليسانس) فربح بقره من الأدب البعد عن الناس ، والجهل بالحياة ، وكسب بميله الأدبي وطبعه المستوحش ، وجهله بالحياة ، خصومة الناس ، وهضادة الكبراء وعداوة المال ...

- ٧ -

نزل الشاب الى ميدان الحياة ، برأس مترع بالعلوم ،
والمبادئ السامية ، ويد مثقلة بالشهادة الابتدائية والثانوية
والعالية ، وجيب خاوي خال .
فلم تكن إلا جولة واحدة ، حتى ولى منهزماً !

ذلك لأن سلاحه ، من (طراز قديم) لم يعد يصلح اليوم
في معركة الحياة !
ولقد خدعته المدرسة ، وكذبت عليه ، وصورت له الحياة
على غير حقيقتها :

قالت له المدرسة : العلم خير من المال ، العلم يحرسك
وأنت تحرس المال ، فرأى أن المال في الحياة خير من العلم ،
العلم لا ينال إلا بالمال ، فلو أن شاباً كان أذكى الناس ، وأنه
الناس ، وكان مفلساً لا يملك أجور المدرسة ، وأثمان الكتب
والثياب ، لما قبل في جامعة ولا حصل علماً - والعلم لا يثمر
إلا بالمال ، فلو أن أعلم أهل الأرض ، كان مفلساً ، يفكر في
خبزه من أين يأتي به ، وبيته كيف يستأجره ، لما بقي له عقل
يفكر ، وذكاؤه ينتج ، ورأى أن أصحاب الأموال الجاهلين ،
تبيحهم الحياة أجل ما تملك من متع ولذائد ومجد وجاء ،
والعلماء الفقراء محرومون من كل شيء .

نعم إن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : الأخلاق أساس النجاح ، وضرب
له المعلم مثلاً سيئاً طلاباً لا أخلاق لهم ولا عفاف . وضرب
له مثلاً عالياً طلاباً كانوا نموذج الطهر والاستقامة والشرف ،
فرأى أن الأولين قد بلغوا أعلى المراتب وأسمى المناصب
والآخرين تحت تحت ... على العتبة ...

فلم أن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : إن الحق فوق القوة . القوة للحق
وليس الحق للقوة ، فآمن بذلك وصدقه ، وتسليح بسلاح
الحق ، فما راعه إلا اللص يضع مسدسه في صدغه يطلب ماله
وثيابه ، فألقى عليه محاضرة في الحق ، جمع فيها كل ما تعلمه من
أساتيد ، وأضاف إليه ما انشغ عنه ذهنه فرد عليها اللص

بقهقهة مروعة ... وذهب بأمواله وثيابه ورجع هو عارياً .
لم يبق له إلا فكرة سخيفة لا تسمن ولا تغني من جوع ولا
تنجي من برد ...

ورفع شكواه إلى القاضي ، فلم ير عند القاضي حقاً يقهر
القوة ، ولكن وجد عنده قوة تصنع الحق ، وجد قوة الجنود ،
فأين يبقى الحق إذا ثار اللصوص على الجند أو فكوا بهم ؟
هذه هي سنة الحياة ، وليس على الحياة ذنب ، فهي سافرة
لم تستتر ولم تخدع أحداً عن نفسها ، ولكن الذنب على الأدباء
والمدرسين الذين وضعوا عيونهم في أوراقهم ، وحسبوا
أنفسهم في مكاتبهم ، وأرادوا أن يدرسوا الحياة فلم يفهموا
منها شيئاً ...

- ٨ -

وجلس الشاب (اللبسانسيه في الحقوق) يدون آراءه تلك
في كتاب ، فلما انتهى منه حمله إلى الناشر ، وكله زهو وإعجاب
بنفسه ... فقلبه الناشر العاوي وصفحه ، فلما رأى اسم صاحبنا
عليه لوى شفتيه ، وقوس حاجبيه ، وقال له :
- إن الناس لا يقرءون الآن ما تكتب ، ومتى صرت
(في المستقبل) كاتباً مشهوراً ننشر لك آثارك
نخرج متعراً بأذيال الحية ... يلعن المستقبل لعناً

ما هو هذا المستقبل ؟ وهل اقتربت منه شبراً واحداً وأنا
أركض وراءه منذ سبعة وعشرين عاماً ؟ فتي أصل إليه ؟ وأين
هو ؟ أهو في العام الآتي ، أهو فيما بعد خمس سنين ؟ وهل
يبقى مستقبلاً إذا أنا بلغت أم يصبح حاضراً ، ويكون على أن
أبلغ مستقبلاً آخر ؟ .. أيمكن مستقبل القبر ؟ لقد طوفت في
الآفاق ، وشرقت وغربت ، وأنجذت وأعرقمت ... فأرجعت
إلا بالحية والتعب والافلاس . فأين أجد الهدوء والراحة
من هموم العيش ، حتى أنصرف إلى ما خلقت له من الدرس
والمطالعة والكتابة والتأليف ؟

وذهب الشاب (اللبسانسيه في الحقوق) يفتش عن الخبز
فلم يجده عند ناشر الكتاب ، ولا في إدارة الجريدة ، ولا في

تحية للرافعي

للأستاذ منصور فهمي بك

مات مصطفى صادق الرافعي ، وما لقيت إلا مرات قليلة
قد لا تتجاوز أصابع اليد عدا ، ولم ترتبط يدي وبينه عقدة
الصداقة الخاصة التي طالما يكون من شأنها أن تولف بين
قلوب الناس على الأنس والمودة في الحياة ، وطالما يكون من
شأنها في الممات أن تؤوي الأسى في القلوب .

على أنه إذا كان قد قل لقائي بالرافعي في الحياة ، ولم
تربطني به علاقة وثيقة من حقها أن تدفع القلم في سبيل الرأى
فإن في حق الوفاء لما قدم الرافعي من خير متسعاً يفسح لقلبي
ولغيره من الأقلام الوفاء أن تذكر ذلك الراحل العظيم .

وعظمة الرافعي التي أنوه بها الآن على عجل إنما مرجعها
اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبي القديم دون غيره فنهل من شرابه
العذب ، وتغذى من خلاصاته القوية الصالحة ، فإذا بها تتمثل
في أسلوبه ، وتغلغل في أدبه وتهذيبه ، وتمازج في تفكيره
وتعبيره ، وتندمج في تقديره وتديبره ، فاستطاع أن يشق
للأدب القديم التليد ، سبيلاً في الأدب الحديث العتيق .

فأى إنسان يرى في التراث الماضي نبل هذا التراث
ولا يألم حين يفقد حارساً يقظاً لهذا التراث وداعياً له عليماً ،
ومعرفاً به حكماً ، وأى وريث لثقافة العرب لا يجزع حين
يموت أديب عربي كبير كان يعرض في أدبه للخلف ، جميل
ما جادت به نفوس السلف ؟ وأى أسف لا يستولى على
النفوس بموت الرافعي النابغة الأديب حين يمر على الخاطر أن
الناس قد فتوا بالحاضر ، فنسوا ودعوا محامد الغابر ؟

وإذا كان من حق الآثار الصالحة أن تبعث من قبورها ، أفلا
يحق على الناس أن يأسفوا على من كان يعمل على نشرها من مراقدها ؟
وا أسفاً على الرافعي ، ثم وا أسفاً على الرافعي !

فألى الأدباء إذن وإلى الشعراء ، وإلى آل الرافعي جميل
العزاء ، وعليهم جميعاً للرافعي الأديب الكبير بعد ذلك حق الوفاء .

منصور فهمي

مكتب المحامى ولم يجده إلا في مدرسة القرية ، فصار (معلم
صبيان) فيها ، يقرئهم الف باء ، ثم ارتقت به الحال قليلاً ،
فصار يدرس سير الأدباء ، وأشعار الشعراء ... يكذب ويتعب ،
في الليل والنهار يحمل آلام الغربة ، وعناء العمل ، ثم لا ينتج
أثراً أدبياً ، ولا يفيد علماً ، ولا يحفظ في جيبه درهم واحد ...
إنه يشتغل من أجل المستقبل ...

- ٩ -

أين ذلك الطفل الذي كان يكره المدرسة ، ويغض المعلم
القاسى - من هذا المعلم الفظ ، الذي يرهق الأطفال ويهز عصاه
في وجوههم ، ويقرع بها جنوبهم ... من يستطيع أن يتصور
أن هذا هو ذلك ؟ وأى شبه بينهما ؟ انهما مختلفان في الجسم
والشكل والطباع والميول ، فلن يكونا شخصاً واحداً !

أين ذلك الطالب المتحمس الذي كان يقود الطلاب إلى
المظاهرات ، ويخطب في المساجد والجامع والأسواق ؟ من هذا
المدرس الخامل الذي يلتقي دروس الأدب على هؤلاء الطلاب ،
ويبدو فيهم كشيخ م في الثمانين ؟ هل هما شخص واحد ؟
إن ذلك الطالب لو رأى هذا المدرس لأبغضه وكرهه
ولما تردد في البطش به !

وأين ذلك الشاب الذي تفيض نفسه بالآمال الكبار ؟ من -
هذا اليائس القانط الذي لم يعد يأمل في شيء ، لأنه جرب فلم
يصل إلى شيء ؟

- ١٠ -

وبعد . فلم أفكر في هذا ؟ إني لا أدري من أنا ، ولا
أعرف كيف وجدت ، ولا أعلم ماهي صلتى بذلك الطفل الذي
نسيت حتى صورة وجهه ، وذلك التليد الذي لم أعد أعرفه
إلا بالتخيل ، وذلك الطالب الذي أحبه وأتوق إليه ، وذلك
المعلم الذي أربى له وأشفق عليه ؟

هل أنا كل هؤلاء ؟ وماذا بعد ؟

يا الله ! إني أحس كأنني جئنت حقاً ؟ !

(بغداد)

على الطنطاوي